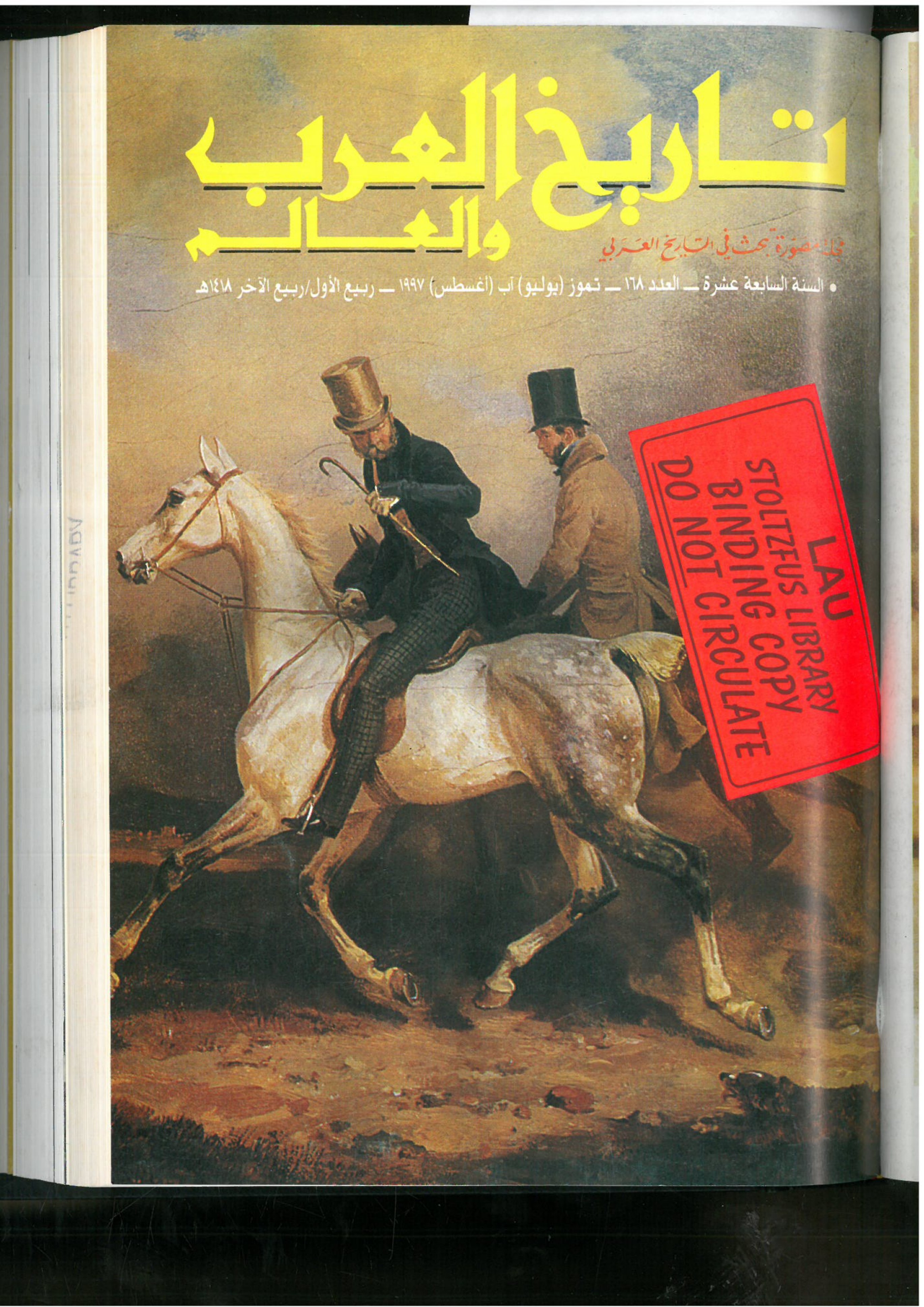

تاريخ العرب والعالم
مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي
• السنة السابعة عشرة ـ العدد ١٦٨ ـ تموز (يوليو) آب (أغسطس) ١٩٩٧ ـ ربيع الأول/ربيع الآخر ١٤١٨هـ
LAU
STOLTZFUS LIBRARY
BINDING COPY
DO NOT CIRCULATE

العرب والكوزموغرافية

د. نقولا زيادة

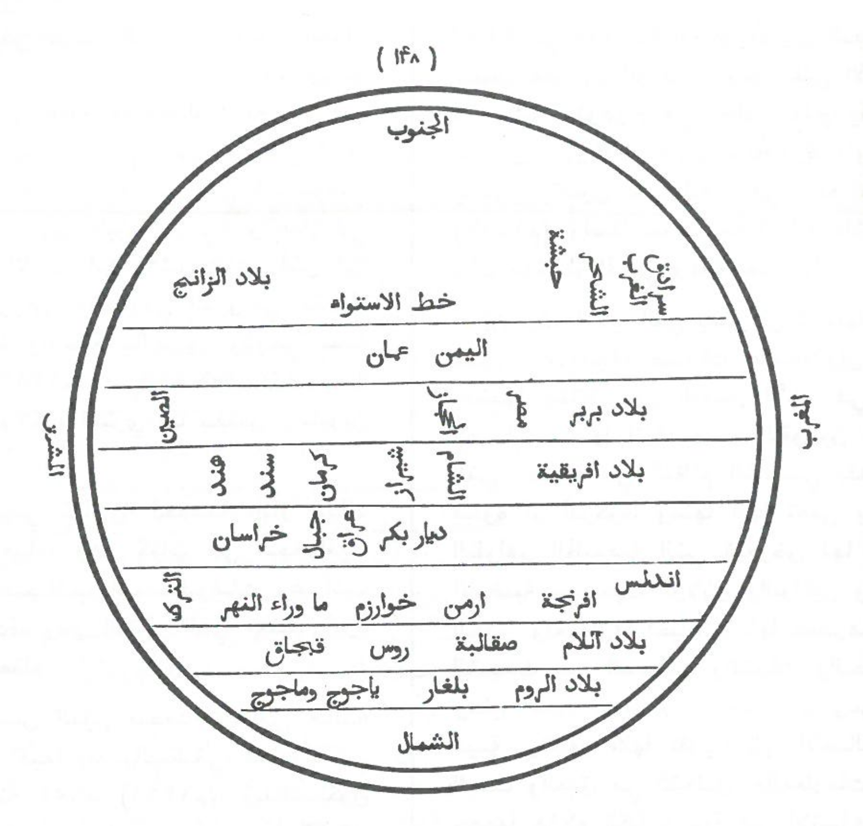
نتحدث عن مجموعة من المؤلفين وضعوا كتباً أساسها تصور الأرض، لا وصفها، ومحاولة اكتناه الصلة بين الأرض والكون بكامله. لكنهم ضمنوا كتبهم الكثير من أخبار العجائب والغرائب، أكثرها مما يشوق القارىء دون أن يكون له سوى أساس ضئيل من الصحة، لكن الأسطورة نسجت حول هذا الأساس الضئيل ثوباً فضفاضاً من الخيال.

في هذا المجال ثمة أربعة كتّاب برزوا بشكل ملحوظ بالنسبة لقرائهم ومعاصريهم، وبالنسبة للباحثين في العقود الأخيرة، وهؤلاء هم:

- «أبو حامد الغرناطي» المتوفى في سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) واسم مؤلفه «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب».
- «زكريا بن محمد القزويني» المتوفى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) وله «آثار البلاد وأخبار العباد» و«عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات».
- «الدمشقي» المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) وصاحب كتاب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر».
- «سراج الدين بن الوردي» المتوفى سنة ٨٦١هـ (١٤٥٧م) مؤلف «خريدة العجائب وفريدة الغرائب».

هؤلاء المؤلفون الأربعة هم أصحاب التآليف الكوزموغرافية، أي الكتب التي تصف الكون، وتحاول تصوره وتفسيره، فتذكر صفات الأقاليم والمدن من الجهة الواحدة، ثم تنتقل، ومرات يكون الانتقال في الفقرة نفسها أو الصفحة ذاتها، لتذكر غريبة أو عجيبة لا أساس لها من الصحة، والغريب أن بعض هؤلاء المؤلفين، مثل أبي حامد الغرناطي يكون غاية في الدقة في وصفه لمنطقة زارها، ثم ينتقل فيذكر عنها شيئاً لم يره بنفسه، ولكن نقله عن غيره.

وحري بالذكر أن تصور الكون ووصفه كوزموغرافياً عرفه من قبل أمثال المسعودي والبيروني. لكن هذين المؤلفين كانا ينظران إلى الأمور نظرة علم، بينما كتابنا المتأخرون كانوا يرون في ذلك غرابة وعجباً. ولعل الأمر لا يعدوك أن يكون نتيجة الحالة الفكرية في الفترة التي عاشت فيها هذه الجماعة، من «أبي حامد» إلى «ابن الوردي»، أي زمن تأخر في الكتابة الجغرافية وغيرها.



□ توزيع أقاليم الأرض عن القزويني.

ولنقدم كلا من هؤلاء الكتاب الأربعة قبل التحدث عن المواضيع التي طرقوها. فأبو حامد الغرناطي أندلسي ولد في غرناطة سنة ٤٧٣هـ (١٠٨٠م)، وظل فيها وفي غيرها من مدن الأندلس إلى سنة ٥٠٠هـ (١١٠٧م)، وكان يتلقى العلم على أهله. وفي تلك السنة غادر بلاده إلى المغرب الأقصى، فطوف في أنحائه حتى جنوبه، ثم انتقل إلى تونس فالاسكندرية فالقاهرة. وكان في كل مكان يجلس على أساطين العلم متعلماً مستفيداً. وكان رحيله عن مصر في عام ٥١٥هـ (١١٢١م) فنزل دمشق وتنقل في أنحاء سورية ولبنان، وفي السنة التالية حل في بغداد ويبدو أنه جعل بغداد مقراً له حيث أخذ ينتقل سائحاً زائراً رحالة، فزار ايران وتركستان ومنطقة الفولغا وبلاد المجر، وأدى فريضة الحج.

وأخيراً خرج من بغداد سنة ٥٥٦هـ (١١٦١م) إلى الموصل حيث كتب «التحفة»، ثم انتقل إلى حلب فدمشق حيث توفي سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) «... وكان في الثانية والتسعين من عمره. وقد قضى معظم سني حياته يجوب الآفاق ويرمي بنفسه في المخاطر، يدفعه إلى ذلك شوق عظيم إلى المجهول ورغبة لا تخبو في الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه...».

والقزويني عربي النّجار، قزويني المولد والنشأة. ولد سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م). ويبدو أنه تلقى من العلم ما وصلت إليه يده قبل أن انتقل إلى الشام حول سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م)، حيث تعرف إلى الصوفي الأندلسي الشهير «ابن العربي» واتصل في الموصل بالأديب ابن الأثير (وهو أخو ابن الأثير المؤرخ). وقد ولي القزويني القضاء في واسط والحلة بالعراق، وتوفي سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) في بغداد، وذلك بعد احتلال «هولاكو» التتري لها بخمس وعشرين سنة.

وللقزويني كتابان، أحدهما «آثار البلاد وأخبار العباد»، وهو كتاب في الجغرافية، والآخر «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، وهو الكتاب الذي يعنينا أمره في هذا المقام.

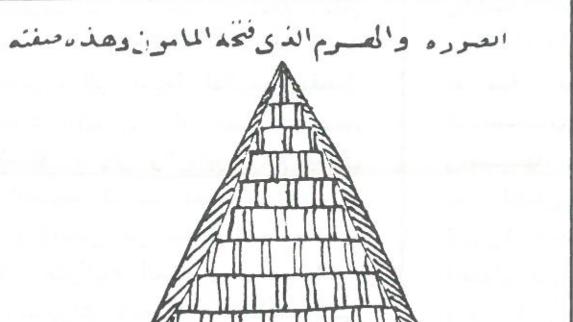
أما شمس الدين محمد بن أبي طالب، الذي عرف فيما بعد بالدمشقي، فقد ولد في دمشق سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، وبذلك يكون قد وعى في صباه وشبابه هذا التوتر والاضطراب الذي أحس به الشرق الإسلامي بسبب احتلال المغول لبغداد والقضاء على الخلافة العباسية واجتياحهم لديار الشام، كما أنه أحس، فيما بعد، بالاطمئنان الذي شمل ديار الشام ومصر بسبب قيام دولة المماليك. وقضى «الدمشقي» معظم سني حياته بدمشق، ولأنه كان إماماً بمسجد «الربوة»، عرف باسم «شيخ الربوة». وكانت له نزعة صوفية، ولعل هذا ما حمله على اعتزال العالم وقضاء السنوات الأخيرة من حياته بناحية من فلسطين، وقد توفي سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م).

ويبدو أن الدمشقي كان واسع الاطلاع متبحراً في ثقافة عصره في التصوف والدين والفقه والجغرافية. وكتابه الذي يهمنا الآن هو «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر».

وآخر المؤلفين الأربعة الذي نوليهم العناية في هذه المقالة هو «سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي»، وهو، على الأرجح، قد نشأ وترعرع في حلب. ولم يتمكن الباحثون من الاهتداء إلى سنة مولده، ولكنهم يكادون يتفقون على أنه توفي سنة ٨٦١هـ (١٤٥٧م). ولسنا نعرف عنه إلا أنه عاش في حلب مدة طويلة في رعاية صاحبها.

إن لهذه الكتب التي يمكن أن تشملها كلمة «كوزموغرافية» صفات عامة، وإن كان بعضها يختلف عن البعض الآخر في هذه الصفات. فمنها أنها تعرض للقوانين العامة التي تتحكم في النظام الشمسي بقدر ما قبلوه أو أدركوه. ومنها أنها تعنى بجميع الظواهر الطبيعية التي تتعرض لها الكرة الأرضية من حيث الزلازل والبراكين وظهور الجزر. واختفاؤها أحياناً. ومنها حصرها على التحدث عن المعادن والنبات والحيوان. وكثير منها يقدم لنا معلومات «اثنوغرافية» قيمة. وتفتقر كلها تقريباً إلى الأصالة في البحث والعمق في التحليل. فالمعلومات التي جمعها هؤلاء الكتاب غاية في الاتساع، لكن ليس بينهم من صاغ نظرية أو أتى بجديد في عالم الفكر. وتتفق جميعها في أنها مصنفات تركيبية تعرض المادة العلمية بطريقة عجائبية تلذ للقارىء العام.

والقزويني بشكل خاص «... يتميز بالوضوح في الأسلوب الذي يبلغ به في واقع الأمر درجة رفيعة. ولديه مقدرة فائقة في تبسيط أكثر الظواهر تعقيداً...» غير أن الميزة الرئيسية لهذه المؤلفات عنايتها بالعجائب والغرائب، ومؤلفوها كانوا، في غالب الأحيان، أصحاب نزعة تصوفية دينية فكانوا يرون في هذه الغرائب معجزات الخالق «... وكثيراً ما اتخذت رسائلهم طابع الموعظة والتهذيب...» ولناخذ على سبيل المثال ما ذكره «أبو حامد الغرناطي» حول هذه النقطة بالذات، ففي المقدمة يرتب العقول في درجات، فيقول:



□ هرم الجيزة الأكبر كما رسمه الغرناطي

«فعقول الملائكة والأنبياء أكبر (من عقول جميع العلماء، وعقول العلماء أكبر) من عقول (جميع) العوام في الدنيا، وعقول العوام أكبر من عقول النساء، وعقول النساء أكبر من عقول الصبيان. وبقدر هذا التفاوت يقع الانكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل. لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل».

ونحن إذا أخذنا هذه الكتب التي ذكرنا من قبل، واحداً بعد الآخر، وجدنا في ذكر فصولها ما قد يوضح محتوياتها، فكتاب «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» للغرناطي فيه أربعة أبواب. يبحث الباب الأول في صفة الدنيا وسكانها من أنسها وجانها، والثاني في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان، والثالث في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار، وما في جزائرها من أنواع النفط والنار. أما الباب الرابع فيبحث في صفة الحفائر والقبور وما تضمنت من القفار إلى يوم النشور.

وكتاب القزويني «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» يقسم إلى قسمين يعالجان العالمين العلوي والسفلي كلا على حدة. والقسم الأول الذي يبحث في العالم العلوي يتناول الكلام على ما في السماء من أجرام، أي الشمس والقمر والنجوم والملائكة، سكان ذلك العالم، وفيه بحث عن التوقيتات والتقاويم العربية والسريانية لارتباطها بحركات الأجرام السماوية.

أما القسم الثاني الذي يبحث في العالم السفلي، أي الأرض وظواهرها، فيتناول فيه

المؤلف ما عرف عن العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) مفصلاً الحديث عنها. ويقسم المعمورة إلى سبعة أقاليم، ويفصل أسباب حدوث الزلازل والبراكين، وتكوين الجبال، ونشأة الأنهار والينابيع، ثم ينتقل إلى ممالك الطبيعة الثلاث، المعدنية والنباتية والحيوانية. والإنسان هو منطلق الحديث في هذه المملكة، فتركيبه العضوي وخصائصه الأخلاقية ومميزات شعوبه مفصلة. ويلي ذلك حديث عن الجان والغيلان. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن مصنف «القزويني» هو أكبر أثر للكوزموغرافية العربية.

«ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر» للدمشقي فيه تسعة أبواب، أولها فيه مقدمة في شكل الأرض وأقاليمها السبعة وفصول السنة. وهي مقدمة تقليدية لا تختلف كثيراً عما ألفناه في كتب الجغرافية السابقة. وأما الباب الثاني فيبحث في المعادن السبعة الذائبة المتطرقة، وذكر طبائعها وخصائصها وفعائلها وما يمت إلى ذلك كله بصلة. ويتناول الباب الثالث الأنهار الجرارة والعيون والآبار وينابيعها المختلفة. ويدور الباب الرابع على كثرة المياه وما قالت القدماء وفي إحاطته بالأرض. ويختص الباب الخامس بذكر بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ووصف حدوده ونواحيه. ويتناول الباب السادس ذكر بحر الجنوب (المحيط الهندي) وما يتفرع منه. ويخص المؤلف الباب السابع بالممالك الشرقية الكبار وأصقاعها وكورها، كما يخص الباب الثامن بالممالك الغربية من مصر إلى الأندلس مروراً بأقطار المغرب. أما الباب التاسع والأخير فيختص بوصف انتساب الأمم إلى سام وحام ويافت، وذكر ما امتازوا به وأسماء شهورهم وخصائص البلاد والإنسان.

«وخريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي، يختلف توزيع فصوله باختلاف النسخ التي نشرت طبعة معينة عنها. والنسخة التي بين أيدينا هي طبعة القاهرة سنة ١٣١٤هـ، وقد قسم الكتاب فيها إلى خمسة وعشرين فصلاً. أولها في ذكر المسافات، وثانيها في صفة الأرض وتقسيمها، وثالثها، وهو أطول الفصول، في ذكر البلدان والأقطار. ثم تليها ثمانية فصول قصيرة تتحدث عن البحار وما فيها، وثلاثة فصول عن الأنهار والعيون والآبار، وفصل واحد في الجبال، وفصل عن الأحجار، وخمسة فصول في النباتات والفواكه والبقول الكبار والصغار والحشائش المختلفة والبذور، وثلاثة فصول في الحيوان، والفصل الأخير في خصائص البلدان. (وفي الطبعة المذكورة ص ١٧٥ ـ ٢١٩ فصل طويل عن مسائل عبدالله بن سلام للنبي الكريم ﷺ، وقصيدة جامعة لغالب أحوال القيامة، هي في رأي أكثر الباحثين، زيادات من عمل النساخ لا من وضع ابن الوردي).

* * *

ويجدر بنا، وقد تعرفنا إلى المؤلفين ومؤلفاتهم، أن نشير إلى مزايا كل منهم على انفراد، وهذه يمكن إجمالها فيما يلي:

كان أبو حامد الغرناطي رحالة جواب آفاق، فقد تنقل في أنحاء العالم الإسلامية وخارجه وعمل في التجارة. ولذلك كانت تجاربه واختباراته واسعة، ومعرفته العملية كبيرة، ومشاهداته كثيرة. وهذا يبدو جلياً وواضحاً في تآليفه. فتراه يتحدث عن منارة الاسكندرية وأهرامات مصر وتجارة بحر الخزر حديث العالم المدقق. لكن الغرناطي لم يكن علامة ولا ادعى أنه عالم. ولم يكن يرمي إلى غاية معينة أو هدف تعليمي خاص. وكل ما رمى إليه، على حد تعبير «دوبلر» «... هو تسلية جمهوره، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد بعد آخر ليزهى بحشد مجموعه المتنوع اللطيف من الحكايات والأقاصيص...»

ولعلنا ننصف الغرناطي والباحثين الذين تعرضوا لدراسة هذا النوع من الأدب الجغرافي العربي إذا نحن نقلنا للقراء تقدير «كرتشكوفسكي» للغرناطي، إذ يقول:

«ومن المستحيل تجاهل الغرناطي في تاريخ الأدب الجغرافي، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء، لأن المنهج الذي ابتدعه في الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة في وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية. وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافي القرن الثالث عشر القزويني واستعمله كل من ابن الوردي وابن اياس في بداية القرن السادس عشر، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميري (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهي في القرن الخامس عشر. وقد خمّن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات، فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محبباً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص، وليس في مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية في ميدان العلم، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه».

أما القزويني فقد اقتصر تنقله على رقعة تمتد من قزوين إلى شمال العراق، وهي رقعة صغيرة إذا قورنت بأسفار الغرناطي. لكن القزويني شهد الغزو المغولي وعرف ما جره على البلاد التي كان يعرفها من أهوال، وهي تجربة شخصية هامة. ولكن أثر هذه التجارب لا يظهر في مؤلفه، فنظرته إلى الغرائب والعجائب نظرة من يسلم كل أمر لله عز وجل ويقبل بحكمه. وبذلك فالذي يمكن أن يقال عن القزويني هو أنه ناقل مثالي، ولا شك أن اطلاعه الواسع ومادته الغزيرة يسرت له أن يكون عمله مزيجاً تركيبياً، بحيث يبدو لنا «لوحة متعددة الألوان تحفل بمادة جغرافية وافرة». والقزويني يزين كتابه بأشكال ورسوم كثيرة، بحيث يمكن تتبع بعض آرائه فيها.

ويمثل الدمشقي الرجل الذي ينقل العمل والمعرفة عمن سبقه إليهما دون أن يسعى إلى العلم رحلة أو انتقالاً. فقد قضى حياته في دمشق ثم تصوف وتزهد واعتزل الناس حتى وفاته. ولعل ميزة الدمشقي هي احتفاله بمعطيات النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض. ولذلك فهو مفيد لدراسة التاريخ الطبيعي. والدمشقي يزودنا بمعلومات قيمة عن ديار الشام وفلسطين، فهو لا يكتفي بوصف دمشق مثلاً، ولكنه يتحدث عن صناعة استخراج ماء الورد، ويضع بين أيدينا رسماً يبين طريقة استقطاره. ولا غرابة في ذلك فقد عرف الدمشقي بلاده مباشرة، بينما كان ينقل أخبار غيرها عمن سبقه دون تمحيص أو نقد، وإما لأنه لم يرد ذلك أو لأنه لم يستطعه.

أما «ابن الوردي» فإنه يختلف عن نظرائه من الكتاب في أنه ركز على العجائب والغرائب بحيث كانت الأصل عنده، وقد نثر فيها، هنا وهناك، حقائق ومعلومات. وقد وضع ابن الوردي كتابه تلبية لطلب «شاهين المؤيد»، قائد قلعة حلب. فلما هم بالكتابة رجع إلى ما كان بين يديه من الكتب، فقرأها ونقل عن الكثير منها. وخريطة ابن الوردي، التي يعرضها علينا في أول كتابه، تظهر عليها الروم والافرنج وغيرهم من طوائف النصارى، كما يدور بها جبل قاف من جميع الجهات. وهنا تجد الحقيقة ممتزجة بالأسطورة من الأصل.

ولعل خير ما نفعله هو أن ننقل جزءاً من

مقدمة ابن الوردي، ففيها توضيح لرأيه العام في كتابه. قال:

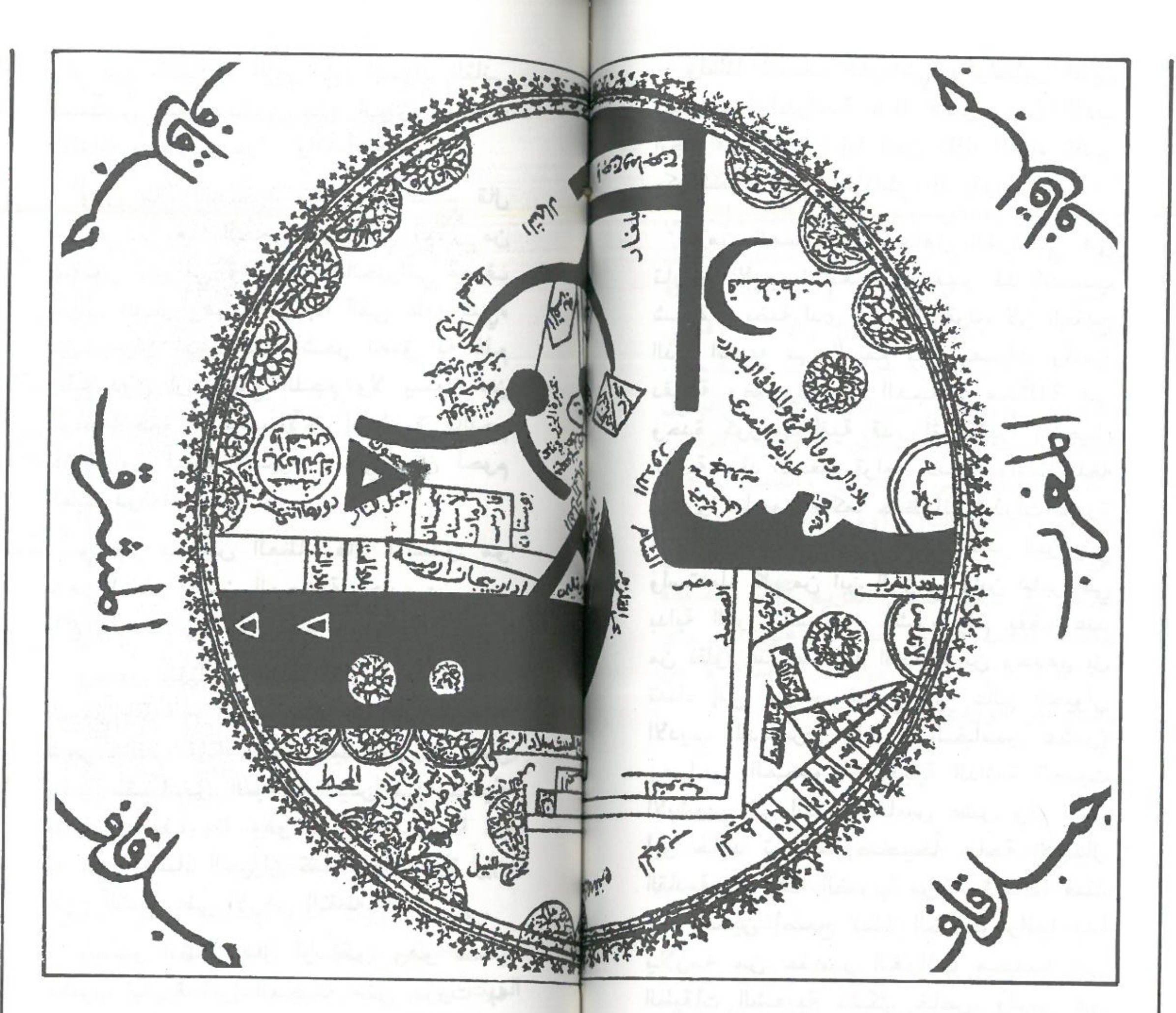
«وضعت دائرة مستعيناً بالله تعالى على صورة شكل الأرض في الطول والعرض بأقاليمها وجهاتها وبلدانها وصفاتها وعروضها وهيآتها، وأقطارها وممالكها وطرقها ومسالكها ومفاوزها ومهالكها، وعامرها وغامرها وجبالها ورمالها وعجائبها وغرائبها، وموقع كل مملكة واقليم من الأخرى، وذكر ما بينهما من المتالف والمعاطب براً وبحراً، وذكر الأمم المقيمة في الجهات والاقطار طرا، وسد ذي القرنين في سالف الأحقاب على ياجوج ومأجوج كما في نص الكتاب. وسميته «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، وبالله سبحانه الاعتصام وهو حسبي على الدوام، ومنه اسأل السداد والتوفيق، فإنه أهل الإجابة والتحقيق...».

* * *

حسب أنه من حق القارىء علينا أن نضع بين يديه نماذج مما وصل إلينا من كتابات هؤلاء الكوزموغرافيين العجائبيين الغرائبيين. ولذلك فإننا ننقل هنا قطعة واحدة من كل من «التحفة»، و«العجائب»، و«النخبة»، و«الخريدة».

في الباب الثالث الذي عقده الغرناطي في صفة البحار وعجائب حيواناتها، جاء قوله:

«ولقد رأيت يوماً وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل في البحر قريب من الساحل فرأيت على صخرة من تلك الجبل عدداً من النارنج الطري الأحمر الذي كأنه قد قطع الآن من شجرة فقلت في نفسي (هذا قد وقع من بعض السفن فذهبت إليه فقبضت منها) واحدة فإذا هي متصلة بالبحر وإذا بها حيوان يضطرب في يدي ويتحرك فتركته ونظرت إليه وإذا فمه في موضع العرجون الذي يعلق النارنج وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج،



□ خارطة العالم لابن الوردي

وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل (شيا) وهو لين فلففت كم ثوبي على يدي وقبضت (عليه) مرة أخرى وعصرته (وجررته) فخرج من فمه مائية كثيرة وضم ولم أقدر أن أقلعه من مكانه فأخرجت سكيناً كان معي ورمت قلعه عن الحجر أو قطعه فلم يؤثر السكين فيه شيئاً وعالجت كل واحدة منها فلم أستطع لها على شيء فتركتها عجزاً منها وهي من عجائب (خلق الله تعالى) ورأيت جميعها (أحياء) يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح إلا الفم والله أعلم لأي شيء تصلح.

ويكون أيضاً في البحر (نوع من) حيوان يشبه رأسه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع وجلده له شعر كشعر جلد العجل وله عنق وصدر وبطن له رجلان كرجلي الضفدع يثب عليهما كما يثب الضفدع وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودي وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت خرج من البحر والقى نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر وقد تلحقه السفن لخفته وقوته وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس فيبرأ ولا يجد النقوس ألماً ما دام (ذلك) النعل في رجله وهو من عجائب الدنيا».

وفي حديث القزويني عن المعادن وتحويلها، يقول:

«**اقليمياء الذهب:** قال أرسطو: إن الذهب إذا خلط بغيره من الأحجار ثم أدخل النار للخلاص خلص جسمه ثم علاه حجر مشوب بسواد وبعضه على لون الزجاج وهو الحجر المسمى باقليمياء الذهب ينفع من وجع العيون ويذهب عنها البياض الحادث فيها وينفع من البلل الذي تحلب من العيون، وقال غيره: ينفع من ابتداء نزول الماء في العين ويدمل القروح الخبيثة وينقي أوساخها ويأكل لحومها الزايدة وتجففها بغير لذع.

اقليمياء الفضة: قال أرسطو: إن الفضة أيضاً إذا أدخلت النار للخلاص تتخلص من الأجساد التي خالطتها ثم يعلوها جسم يسمى اقليمياء الفضة وهو أقل نفعاً من اقليمياء الذهب وهو نافع من القروح والسعفة والجرب طلاء مع بعض الأدهان، وقال غيره: إنه ينفع من وجع العين ذروراً وفي المراهم ينبت اللحم في الجراحات.

باهت: هو حجر أبيض في لون المرقشيثا البيضاء يتلألأ حسناً، إذا وقع عليه نظر الإنسان يضحك حتى يموت وزعموا أنه مغناطيس الإنسان وله قصة في مدينة النحاس وهي أن من علا سورها يضحك وينجذب إلى داخلها ذكروا أن في وسط هذه المدينة عمود من حجر باهت من علاها يجذبه به إليه وسياتي ذكرها إن شاء الله تعالى في مقالة البلدان، وإذا أخذ الإنسان الضحك من وقوع نظره عليه لا يبريه من ذلك شيء إلى ما شاء الله ولا يبطل فعل هذا الحجر إلا طاير صغير يقال له الفرفر وهو أصغر من العصفور ولونه أسود وله طرق حمر وعيناه حمراوتان ورجلاه كذلك زعموا انه إذا وقع على هذا الحجر أبطل فعله».

وتعرض الدمشقي للمعادن، فذكر أنواع حجر المغناطيس بقوله:

«حجر المغناطيس ومعدنه ببحر الهند وبجبل عند القلزم وبالأندلس وبناحية من خراسان وهو من الحجارة الحديدية ومن خواصه أنه يقوى جذبه للحديد... وأجوده المعرق بالحمرة الذي لونه شبيه بلون الحديد وأفضله جذباً ما جذب منه نصف مثقال مثقال حديد وحمله... وقال أرسطو في علة تكوينه: إن المغناطيس ابتدأ في معدنه ليكون حديداً فعرض له الحر واليبس فصار حجراً صلبياً شديد الصلابة لقلة الرطوبة في معدنه وغلظ اليبس المتصل به وهو جاذب للحديد بالخاصة. وقال: عطارد الحاسب هو ثلاثة أنواع أحدها يجذب والثاني يهرب والثالث جانبه يجذب والآخر يهرب.

وحجر الماس مغناطيس الذهب فإنه إذا قرب منه التصق به وأمسكه. والذهب مغناطيس الزيبق حيث لقيه جذبه إليه ولصق به وامتزج به وكذلك إذا اختلطت برادة ذهب ورصاص ونحاس وحديد وقصدير وألقى عليه الزيبق طلبه برادة الذهب وأمسكه واختلط به دون باقي البرادات.

وحجر الفضة سماه أرسطو مغناطيس الفضة، وهو حجر أبيض مشوب بحمرة إذا غمز عليه الإنسان بيده صر كما يصر القصدير وليس في القصدير شيء منه ولا فيه شيء من القصدير وهو يجذب الفضة على خمسة أذرع.

وحجر الصفر سماه أرسطو أيضاً مغناطيس النحاس الأصفر والأحمر وهو حجر مشوب بصفرة وغبرة وكمودة وإذا قرب منه النحاس التصق به.

وحجر الرصاص سماه أرسطو مغناطيس الرصاص وهو حجر قبيح المنظر منتن الرائحة إذا ألقى منه دانق على عشرة دراهم رصاص عقدها فضة وقبلت السبك والمطرقة هذا كلام أرسطو. (وقال الحاذق: إن أرسطو أراد ذكر التسويد الأول من السواد الثاني المسمى أبار ويكون منه الجزء صابغاً لثلثماية وعشرين جزاء والله أعلم.)

ومن هذه الحجارة مغناطيس اللحم قال أرسطو: إن هذا الحجر يكون في البحر من صنفين حيواني ومعدني، فالحيواني يعرف بأرنب البحر وهو حجر إذا ألقى عليه شيء من حيوان ليس عليه شعر لصق به فلم يقلع دون أن يتقلع اللحم ولا يسيل من موضعه دم، والنصف الآخر إذا لصق باللحم اقتلعه من لحوم الحيوان الحي ومن لحوم الميت دونه.

وحجر يختلس العظام قال أرسطو: هو حجر أصفر خشن المحسنة يجلب من بلاد بلخ إذا دنا من العظم اختلسه.

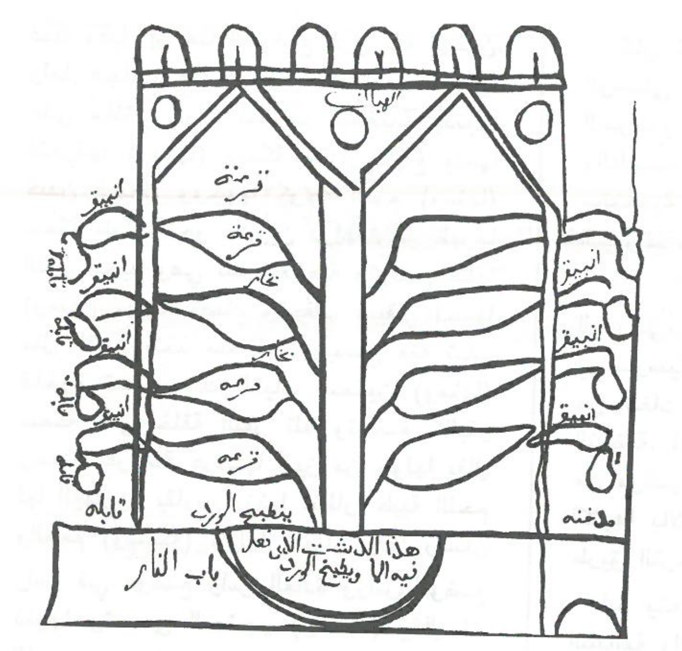
وحجر يختلس الشعر قال أرسطو: هذا الحجر إذا ألح عليه إنسان بالنظر ظن أنه شعر متلفف فإذا جسه باليد علم أنه حجر وهو متخلخل الجسم ليس في جميع الأحجار أخف منه وهو يحلق الشعر إذا مر به على أجساد الحيوان كما تفعل النورة وإن طرح الشعر على الأرض التقطه.

وحجر الظفر قال أرسطو: وهو حجر مشوب بغبرة لين المجسة متى مررت به على ظفر سلخه أو على قلامة الأظفار التقطها. وهذا الحجر مع لينه لا يعمل فيه الحديد، ولا ينكسر بالماس.

وحجر يجذب القطن، قال أرسطو: وهو حجر يتكون في سواحل البحر مع الملوحة لونه أبيض إذا وضع عليه القطن التصق به ولو كان منسوجاً مع كتان.

وحجر يجذب الصوف قال أرسطو: وهو حجر مدور أخضر اللون فيه عروق صفر يؤتى به من جزائر بحر الصين خفيف الجسم إذا دنا من الصوف وقع عليه حتى يغوص فيه.

وحجر يجذب الماء قال أرسطو: هو حجر



□ تقطير الورد للدمشقي

أبيض إذا شددته على سرة المستشفي ليلاً وترك إلى الصباح ثم جعل في الشمس قطرت منه قطرات من الماء إلى أن لا يبقى منه شيء ثم يعاد ويشد أيضاً وفعل ذلك مراراً حتى يبرى المستشفي.

وحجر الزيت قال أرسطو: وهو حجر أحمر مشاب بزرقة إذا أدنيته من الزيت طلبه الزيت حتى يدخل فيه وهذا الحجر يؤتى به من سفالة الزنج وإذا وقع على ثوب زيت ومر هذا الحجر عليه لم يترك له أثر أصلاً.

وحجر مغناطيس الخل هو أبيض يسمى الكزك إذا وضع في بقعة فيه إناء فيه خل انساق الخل إليه ودخل فيه حتى يتوسطه ويغلى الخل به ما دام فيه، من غير سخونة ولا نار.

وحجر الكهربا يجذب القش والتبن. والكهربا صمغ شجر الخلنج وقد يتولد في وجه الأرض كالحصى وأجوده المسمى الشمعي لكونه مجزعاً ببياض أصم ويلقط القش ورائحته تشبه رائحة الليمون ويسمى مصباح الروم ويوجد بالأندلس وبسواحل البحر تحت الأرض وبالواحات كذلك يوجد قطعاً قطعاً يجمعه الحراثون».

وقد خص ابن الوردي بحر القلزم (البحر الأحمر) وعجائبه وغرائبه بفصل جاء فيه قوله:

«هذا البحر شعبة من بحر الهند جنوبيه بلاد بربر والحبشة وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب وعلى ساحله الغربي بلاد اليمن والقلزم اسم لمدينة على ساحله وهو البحر الذي غرق فيه فرعون وهو بحر مظلم وحش لا خير فيه باطناً ولا ظاهراً وفي هذا البحر جزائر كثيرة وغالبها غير مسكونة ولا مسلوكة (فمن جزائره) جزيرة قريبة من ايلة يسكنها قوم يقال لهم بنو حداب ليس لهم زرع ولا ضرع ولا ماء عذب، معاشهم من السمك وبيوتهم السفن المتكسرة ويشحذون الماء والخبز ممن يمر بهم من المسافرين وعندهم دوارة في سفح جبل إذا وقع الريح عليها انقسمت قسمين ويلقى المركب بين شعبين متقابلين فيثور الريح بينهما ويخرج من كليهما متخالفين فتنقلب المركب بمن

فيها وقيل إن هذا الموضع غرق فيه فرعون. وأما عجائب هذا البحر فمنها سمكة تزيد على مائتي ذراع تضرب السفينة بذنبها فتغرقها (ومنها) سمكة مقدار ذراع بدنها كبدن السمك ووجهها كوجه البوم (ومنها) سمكة طولها نحو عشرين ذراعاً ومن ظهرها الذيل الجيد وهي تلد كالآدمية وترضع مثلها (ومنها) سمكة تصاد وتجفف فيبقى لحمها مثل القطن يتخذ منه غزل وينسج منه ثياب فاخرة تسمى تلك الثياب سمكين (ومنها) سمكة على خلقة البقر تلد وترضع كالبقر وسمكة عريضة عرضها أميز من طولها يقال لها اليهازور يقارب وزنها قنطاراً طيبة اللحم والطعم (وسمكة) طولها شبران ولها رأسان رأس في موضع رأس العادة ورأس موضع ذنبها وتسمى الحنجر (وسمك) يقال له الفرس وهو نوع من تحت كلاب الماء في البحر في فمه سبع صفوف أضراس وطوله عشرة أشبار وهو كثير الضرر والأذى».

وخلاصة القول أن العرب أخذوا عمن سبقهم وعن معاصريهم التراث الجغرافي الذي وقعوا عليه فنقلوه ولخصوه وشرحوه ثم انتقلوا إلى دور التصحيح والإضافة والابتكار، فجودوا في هذه النواحي جميعها: في المجالات الرياضية والفلكية والبلدانية وفي الرحلات وكتب الكوزموغرافية. وكان لهذا كله أثر كبير في تطور الفكر العربي شأنه في ذلك شأن نواحي المعرفة الأخرى. وقد اتصل الأوروبيون في العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة بالعرب، وتأثروا بالكثير الكثير من مآتيهم الحضارية والثقافية.

ونحن إذا أخذنا الأدب الجغرافي بشكل خاص وجدنا أن الأمر يدور حول النقاط التالية:

كان اهتمام الأوروبيين في العصور الوسطى منصرفاً، في الدرجة الأولى، إلى الموضوعات الرياضية والفلكية والطبية والفلسفية. ومن هنا كان اهتمام المترجمين بالناحية الرياضية والفلكية من البحوث الجغرافية. وهنا كان الأثر العربي الكبير.

لم يكن ثمة اهتمام جماعي بالأدب العربي، ولذلك فإن الرحلات العربية (والفارسية) لم تنقل إلى اللاتينية أو غيرها من اللغات التي ظهرت في أوروبا في عصر النهضة. أما ما وصل إلى الأدب الأوروبي من موضوعات أدبية عربية الأصل فقد انتقل أكثرها بالاحتكاك والتعرف الشخصي، لا عن طريق الترجمة.

لم يتعرف الأوروبيون إلى الجغرافية البلدانية والمسالكية. فلم ينقل شيء من كتب الأصطخري أو ابن حوقل أو المقدسي، أو من كتب الجغرافية الإدارية والسياسية مثل مؤلفات القلقشندي أو العمري.

عرف الأوروبيون كتب الكوزموغرافية في مطلع العصور الحديثة فنقلوا منها الكثير، ذلك لأنها كانت مما يحبه جمهرة القراء.

تأثرت أوروبا ببعض الخرط التي رسمها الجغرافيون العرب الأوائل وخرط الأدريسي. لكن لأنهم لم يعرفوا كتب البلدانيين فلم يتأثروا بالخرط المرسومة فيها.

على أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر انصرف عشرات من العلماء والباحثين والمؤرخين الأوروبيين إلى كتب الجغرافية الأخرى - البلدانية والمعجمية والرحلات وما إليها - وأخذوا أنفسهم بدرسها وترجمتها والإفادة من المعلومات الكثيرة فيها.

•